النَّصُّ الثَّانِي: مَنْزِلَةُ السُّنَّةِ بِالنِّسبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ:

(مُسْفِرْ غُرْمُ اللَّهِ الدُّمَينِي، مَقَايِيسُ نَقْدِ مُتُونِ السُّنَّةِ ، الطَّبْعَةُ الأُولَى، الرِّيَاضُ، 1404هـ/1984م)

النَّصُّ

1. يَنْظُرُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ إِلَى السُّـنَّةِ بِاعْتِبَارِهَا رَاجِعَةً فِي مَعْنَاهَا إِلَى الْقُرْآنِ، فَهِيَ تَفْصِـيلُ مُجْمَلِهِ، وَبَيَانُ مُشْـكِلِهِ، وَبَسْـطُ مُخْتَصَـرِهِ، قَالَ تَعَالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (16، سُـورَةُ النَّحْلِ،44) فَلاَ تَجِدُ فِي السُّـنَّةِ أَمْراً إِلاَّ وَالْقُرْآنُ قَدْ دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ، دَلاَلَةً إِجْمَالِيَّةً أَوْ تَفْصِـيلِيَّةً، وَلأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْقُرْآنَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَـيءٍ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ السُّـنَّةُ حَاصِـلَةً فِيهِ فِي الْجُمْلَةِ.لَكِنْ هَلْ تَأْتِي السُّـنَّةُ بِمَا لاَ أَصْـلَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ؟ هَذَا هُوَ مَحَلُّ النِّزَاعِ. الصَّـحِيحُ أَنَّ السُّـنَّةَ بِالنِّسْـبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ لا تَعْدوا أَحَدَ ثَلاَثَةِ أَنْوَاعٍ:

2. النَّوْعُ الأَوَّلُ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ نَصَّ كِتَابٍ، فَبَيَّنَ رَسُـولُ اللَّهِ ρ مِثْلَ مَا نَصَّ الْكِتَابُ، فَالسُّـنَّةُ فِي هَذَا النَّوْعِ، تُؤَكِّدُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ حِينَئِذٍ مُسْـتَمَدّاً مِنْ مَصْـدَرَينِ: الْقُرْآنِ مُثْبِتاً لَهُ، وَالسُّـنَّةِ مُؤَيِّدَةً، وَمِنْ ذَلِكَ الأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى وُجُوبِ الصَّـلاَةِ والصَّـوْمِ، وَالدَّالَّةُ عَلَى حُرْمَةِ الشِّـرْكِ وشَـهَادَةِ الزُّورِ، وَهَذَا النَّوْعُ لا خِلاَفَ فيه بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ جُمْلَةَ كِتَابٍ، فَبَيَّنَ الرَّسُولُ عَنِ اللَّهِ مَعْنَى مَا أَرَادَ، وَيَكُونُ بَيَانُ السُّنَّةِ لِلْقُرْآنِ إِمَّا: بِتَفْصِيلِ مُجْمَلِهِ، أَوْ بِتَقْيِيدِ مُطْلَقِهِ، أَو بِتَخْصِيصِ عَامِّهِ، وَهذَا لاَ خِلاَفَ فِيهِ أَيضاً.

3. النَّوْعُ الثَّالِثُ: مَا سَـنَّ رَسُـولُ اللَّهِ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ نَصُّ كِتَابٍ، وَهَذَا هُوَ النَّوعُ الَّذِي وَقَعَ الخِلاَفُ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ:

قَالَ الْمُحَدِّثُونَ وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ: قَدْ تَأْتِي السُّـنَّةُ بِمَا لَيسَ فِي الكِتَابِ، لأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقِيقَةً، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: " وَالْقُرْآنُ وَالْخَبَرُ الصَّحِيحُ بَعْضُهَا مُضَافٌ إِلَى بَعضٍ، وَهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي أَنَّهُمَا مِنْ عِنْدِاللَّهِ" " لأَنَّ الْوَحْيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَنْقَسِـمُ إِلَى قِسْـمَينِ: أَحَدُ هُمَا وَحْيٌ مَتْلُوٌّ مُؤَلَّفٌ تَأْلِيفاً مُعْجِزُ النِّظَامَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ.وَالثَّانِي: وَحْيٌ مَرْوِيٌّ مَنْقُولٌ، غَيرُ مُؤَلَّفٍ وَلاَ مُعْجِزُ النِّظَامَ، وَلاَ مَتْلُوٌّ، وَلَكِنَّهُ مَقْرُوءٌ، وَهُوَ الْخَبَرُ الْوَارِدُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ρ ". وَقَدْ مَثَّلُوا لِهَذَا النَّوْعِ بِالأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى تَحْرِيمِ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَةِ، وَتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَمَّتِهاَ وَخَالَتِهَا، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ يُنَصَّ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَقِلَّ بِالْحُكْمِ مِمَّا لا أَصْلَ لَهُ فِي الْكِتَابِ.

4. كَمَا كَانَ مِنْ حُجَّةِ هَؤُلاءِ، اَلآياتُ الدَّالَّةُ عَلَى وُجُوبِ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُخَالَفَتِهِ، قَالَ تَعَالَى:(وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَ غُ الْمُبِينُ) (5، سُورَةُ المائدة، 92) إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الْقُرآنِيَّةِ.

5. كَمَا احْتَجُّوا بِالأَحَادِيثِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنْ تَرْكِ السُّنَّةِ وَالاِقْتِصَارِ عَلَى الْكِتَابِ، كَحَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ρ: (لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيتُ عَنْهُ، يَقُولُ: لاَ أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اِتَّبَعْنَا). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْحَاكِمَ.

النَّصُّ الرّابِعُ: ابنُ خَلدون مُنشِئُ فَلْسَفَةِ التّاريخِ

(زينب الخضيري،فلسفةُ التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة–القاهرة 1409هـ /1989م)

النَّصُّ

1. يَعْتَقِدُ الْعَديدِ مِنْ كِبارِ مُفَكِّري الْعالَمِ أنَّ ابنَ خَلدونَ هو مُنشِئُ هذا النَّوعِ مِنْ فُروعِ الْفَلسَفَةِ. وَمِنْ هَؤلاءِ: (توينبي Toynbee) الْمُؤَرِّخُ الْبِريطانِيُّ الْمُعاصِرُ الشَّهيرُ، و(فلنت Flint) أستاذُ الْفَلسَفَةِ، و(جاستون بوتول Gaston Bouthoul)الْمُستَشرِقُ الْفَرَنسِيُّ، وَالْمُستَشرِقُ الفَرَنسِيُّ (كارادي فو Garady Foe) وَمِنْ مُفَكِّري الْعَرَبِ: ساطِعُ الْحَصرِيِّ، وَالأستاذُ مُحَمَّدُ عبدُ الله عَنان وغَيرُهُمُ الْكثيرُ.

2. أما د. طه حُسَين يُعطينا –دونَ أنْ يَدري– الأدِلَّةَ على أنَّ ابنَ خَلْدونَ أتَى بِفَلْسَفَةِ التّاريخِ. بَيْنَما يَعتَقِدُ طَهَ حُسَيْن أنَّ ابنَ خَلدونَ لَمْ يَأتِ بِعِلمِ الاجتِماعِ كما يَدَّعي الْكَثيرونَ، وَعَلَى رَأسِهِمْ (فريرو Feriro) و(جمبلوفيتز Gomplowitz)، إنَّما أتَى بِفَلْسَفَةٍ في الاجتِماعِ وَلَمْ يَرْقَ لِدَرَجَةِ الْعِلْمِ. وَيَقولُ في تَدْليلِهِ عَلَى ذَلِكَ: "إنَّ ابنَ خلدونَ يَدرُسُ الْمُجتَمَعَ لِيُفَسِّرَ التّاريخَ"؛ وَ"كانَ هَدَفُهُ دِراسَةَ قَوانينِ التَّطَوُّرِ الإنسانِيّ عُموماً"؛ و"إنَّ الْمُقَدِّمَةَ شَديدَةُ الشَّبَهِ بِكِتابِ (مونتسكيو Montesquieu) "رُوحُ الْقَوانينِ" وَلا يُمْكِنُنا الزَّعْمُ بِأنَّ "رُوحَ الْقَوانينِ" كِتابٌ في عِلْمِ الاجتِماعِ بَلْ هو مَثَلُهُ مِثلُ الْمَقَدِّمَةِ مُؤَلَّفٌ فَلْسَفِيٌّ"؛ أَلَمْ يُعطينا طه حسينُ دونَ أنْ يَدرِيَ الأدلَةَ على أنَّ ابنَ خَلدونَ أتَى بِفَلسَفَةِ التّاريخِ بَيْنَما كانَ هَدَفُهُ دَحْضُ الآراءِ الَّتي تَقولُ بِأنَّ ابنَ خلدونَ مُنشِئٌ لِعِلمِ الاجتِماعِ.

3. لَمْ يَستَخدِمْ ابنُ خلدونَ تَعبيرَ "فَلسَفَةِ التّاريخِ" طَبعاً كَاسمٍ لِدِراسَتِهِ، إنَّما أطْلَقَ عَلَيها اسمَ "الْعُمرانُ الْبَشَرِيُّ" وَيَقولُ لَنا في الْمُقَدِّمَةِ أنَّ "الْعُمرانُ الْبَشَرِيُّ" ما هو إلا الاجتِماعُ الْبَشَرِيُّ، فَما هو "الْعُمرانُ" بِالضَّبْطِ عندَ ابنِ خَلدونَ؟ يُجمِعُ كَثيرٌ مِنَ الْباحِثينَ عَلَى أنَّهُ الْحَضارَةُ. وَمِنْ هؤلاءِ (نيكولسون Nicholson)، و(توينبي Toynbee) وَغَيْرِهما مِنَ الْمُفَكِّرينَ الْعَرَبِ أمثالِ الأستاذِ ساطِعِ الْحَصْرِيِّ، وَالدُّكتور عبد الرحمن بَدَوي.

4. وَجاءَ في مَوسوعَةِ (لاروس Larousse) أنَّ الْحَضارَةَ هي مَجموعَةُ الْخَصائِصِ الْخاصَّةِ بِالْحياةِ الْفِكريَّةِ، وَالْفَنِيَّةِ، وَالْخُلُقِيَّةِ، وَالْمادِيَّةِ، وَالسِّياسِيَّةِ لِبَلَدٍ ما، أو مُجتَمَعٍ ما. وَتُضيفُ الْمَوسوعَةُ أنَّ الْحَضارَةَ هي مَوضوعُ فَلْسَفَةِ التّاريخِ. وَيَقولُ لَنا الْكاتِبُ (لوسيان دوبليسي Duplessy Lucien) في كِتابِهِ: "روحُ الْحَضاراتِ– قَوانينُ نَشأتِها وَحياتِها وَنِهايَتِها".

5. مِنْ أيْنَ أتَى ابنُ خلدونَ بِفَلْسَفَتِهِ في التّاريخِ؟ هَلْ اختَرَعَها فِعْلا كَما يَقولُ في الْمُقَدِّمَةِ، وَكَما سَبَقَ أنْ بَيَّنا؟ أمْ أخَذَ عَنْ السّابِقينَ عَلَيْهِ؟ وَلَو كانَ هذا صَحيحاً فَعَنْ مَنْ أخَذ؟ وَيُمكِنُنا أنْ نُؤَكِّدَ أنَّ ابنَ خلدونَ لَمْ يَأخُذْ مِنَ الْمُفَكِّرينَ الْعَرَبِ السّابِقينَ عَلَيْهِ إذْ دَلَّتِ الْمُقارناتُ عَلَى ذَلِكَ.

6. أمّا مِنْ حَيْثُ الْمِنهَجِ التّاريخِيِّ فَكانَ الْمُسلِمونَ يُطالِبونَ بِالصِّدْقِ وَالدِّقَّةِ في نَقلِ الْمَعلوماتِ التّاريْخِيَّةِ بِقَدَرِ الإمكانِ عَنِ الْمَصادِرِ الأولَى، أوْ عَنْ شاهِدي عَيانٍ. فَكانَ هَمُّهُمْ الّتأكُّدُ مِنْ صِحَّةِ سِلْسِلَةِ الإسنادِ. كانَ مِنهَجُهُمْ هُوَ "الْجَرْحُ وَالتَّعديلُ" وَهِيَ طَريقَةٌ ابتَدَعَها –كَما يَقولُ لَنا د. عَبْدُ الرّازِقِ مَكّي– رُواةُ الأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ، وَمؤَدّاها الْبَحثُ الذي يَجِبُ القِيامَ بِهِ لِلتّأكُّدِ مِنْ أمانَةِ وَصِدقِ الرّاوي. وَلَقَدْ تَبَحَّرَ الْعُلَماءُ الْمُسلِمونَ في ذَلِكَ حَتَّى أنَّ الْمَعلوماتِ الّتي حَصَلوا عَلَيْها مِنْ جَرّاءِ تِلْكَ الأبْحاثِ أصبَحَتْ تُكَوِّنُ ما يُشبِهُ الْمُعجَماتِ. الّتي يُمكِنُ الرُّجوعُ إلَيها لاستِخراجِ بَعضِ الْقَواعِدِ الّتي تُساعِدُ في تَقريرِ قيمَةِ كُلِّ حَديثٍ. وَمِنْ هَذِهِ الْقَواعِدِ تَكَوَّنَ عِلْمُ "مُصْطَلَحُ الْحَديثِ". وَقَدْ أخَذَ ابنُ خَلدونَ بِهَذا الْمِنهَجِ، إلا أنَّ هذا الْمِنهَجَ لَمْ يَكُنْ الْمِنْهَجَ الأساسيَّ عِنْدَهُ، بَلْ كانَ أهَمَّ مِنْهَجٍ بِالنِّسبَةِ لَهُ هُوَ دِراسَةُ الرِّواياتِ التّاريْخِيَّةِ بِواسِطَةِ الْقَوانينِ الّتي تَتَحَكَّمُ في الطَّبيعَةِ، وَتِلْكَ الّتي تَتَحَكَّمُ في الْمُجتَمَعِ، فَإذا كانَ هُناكَ اتِّفاقٌ بَيْنَ الرِّواياتِ التّاريخِيَّةِ وَبَيْنَ تلكَ الْقَوانينِ اعتَبَرها صَحيحَةً، أمّا إذا كانَ هُناكَ تَناقُضٌ رَفَضَها، حَتى قَبْلَ استِعراضِ سِلْسِلَةِ الرُّواةِ الذينَ نَقَلوها.

7. وَقَدْ قَدَّمَ لَنا ابنُ خَلدونَ عِدَّةَ أمثِلَةٍ في الْمُقَدِّمَةِ عَلَى رَفْضِهِ لِبَعْضِ الرِّواياتِ نَتيجَةَ تَناقُضِها مَعَ قَوانينِ الطَّبيعَةِ، مِثلَ قِصَّةِ بِناءِ الإسْكَندَريةِ، أوْ لِتَناقُضِها مَعَ الْقَوانينِ الاجتِماعِيَّةِ مِثلَ قِصَّةِ مُوسَى وَجُيوشِ بَنِي إسرائيلَ. إذَنْ ما كانَ ابنُ خلدونَ لِيَتَأثَّرَ بِهَؤلاءِ الْعُلَماءِ وَهو يَضَعُ عِلْمَهُ الْجَديدِ.

(بِتَصَرُّف، من كتاب فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1409هـ /1989م، ص/ 67-72)